المنهج القرآنيّ في تأصيل العقيدة
دراسةٌ تحليليّةٌ تطبيقيّةٌ

د. يحيى آل دوخي

الخلاصة

في هٰذا البحث نتناول المنهج القرآنيّ الّذي يرسخ العقيدة عند الإنسان، وذٰلك بطرحنا للأدوات الّتي يتألّف منها المنهج القرآنيّ أو الّتي استعملها القرآن الكريم، وهي منهج الفطرة والعقل والجدل والقصّة، فبحثنا هو دراسة هٰذه المناهج بموضوعيّة وعلميّة، وذكر التطبيقات لكل منهجٍ من القرآن نفسه، فالفطرة بعد تعريفها عرّجنا على مجالها التطبيقيّ، كظاهرة الرزق وظاهرة الحياة والموت وظاهرة علم الغيب، فهٰذه المجالات تخلق عند الإنسان هاجسًا يدفعه بالوجدان والفطرة إلى توحيد الله والإيمان به، وهٰكذا المنهج العقليّ، فالعقل في النصّ القرآنيّ والروائيّ هو الحجّة الباطنة، كما أنّ الرسل الحجّة الظاهرة، فهو أداة التفكير عند الإنسان، ومعيار التمييز بين الخير والشرّ، بل إنّ إدراك الخير كلّه يكون بواسطة العقل، وقد حدّدنا تعريفه وذكرنا أيضًا تطبيقاته، ومن ضمنها، الاعتقاد بالصانع الحكيم المدبّر، والاعتقاد بالنبوّة والمعاد، وهٰكذا الحال في بقيّة المناهج الأخرى، كالجدل الّذي هو غايةٌ وهدفٌ وليس وسيلةً للوصول إلى الحقّ وتمييزه عن الباطل، والمنهج

القصصيّ التاريخيّ ففيه من السنن الربّانيّة والعبر والدروس ما لا يخفى، ونتيجة هٰذه البحوث هي الوصول إلى أنّ القرآن غرس وأصّل في نفس الإنسان العقيدة الّتي هي أساس الإيمان بالله جلّ شأنه.

وأمّا مفردة المنهج القرآنيّ الّذي تضمّنته هٰذه الدراسة، فنقصد بها فهمنا للأسلوب والطريق الّذي سلكه القرآن الكريم، من خلال آياته الشريفة؛ لتأصيل وترسيخ العقيدة في نفس الإنسان، فقد يكون المنهج المتّبع لدلالة هٰذه الآيات هو إثارة العقل أو الفطرة أو الإقناع؛ لكي يصل الإنسان إلى معرفته ـ جلّ وعلا ـ ومعرفة أنبيائه ورسله والبعث والمعاد، وهٰكذا في بقيّة المنظومة العقديّة.

المفردات الدلاليّة: المنهج، القرآن، العقيدة، الفطرة، العقل، الجدل، الإقناع.

مقدّمة

القرآن الكريم كتابٌ إلٰهيٌّ لهداية الناس كافةً يهدي للتي هي أقوم، يشتمل على رؤية كونية ونظامٍ سلوكي يحمل خطابًا عالميًّا للناس كافّةً، وهو شموليٌّ لكلّ زمانٍ ومكانٍ دون أن يقيّد بفئةٍ دون أخرى، أو بفاصلةٍ زمنيّةٍ ومكانيّةٍ، بل خطابه عامٌّ مطلقٌ، وقد جعله الله ـ تبارك وتعالى ـ خاتمة كتبه، ولعلّ أهمّ ما يمتاز به هٰذا الكتاب الشريف، هو:

أوّلًا: أنّه نورٌ، فليس بين دفّتيه إبهامٌ أو غموضٌ أو التباسٌ، وكلّ موضوعاته قابلةٌ للفهم، فهو نورٌ يستضاء به ﴿جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾ [سورة المائدة: 15].

ثانيًا: أنّه بيانٌ وتبيانٌ، وأنّه وعاءٌ لترسيخ القواعد والبراهين الّتي يحتاج إليها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل: 89]، وقال: ﴿هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ...﴾ [سورة آل عمران: 138].

ثالثًا: أنّه أحسن وأفضل وأدقّ الكلام، بل ليس هناك أفضل منه على الإطلاق، فمحتواه الحقّ وقوله الصدق، ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [سورة الزمر: 23]، وكونه أحسن

الحديث تلازمه صفة الصدق، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: 87].

رابعًا: أنّه يهـــدي للّتي هي أقوم وأفضل وأصلح، وإنّ الهداية ـ بطبيعة الحال ـ تكون باختيار الإنسان، والمولى ـ جلّ وعلا ـ أعطاه ملكة العقل والتفكّر ليصل إلى الحقّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هٰذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: 9].

بل قد يزيد هداه إلى مرتبة أكمل، ﴿وَيَزِيدُ اللّهُ الّذينَ اهْتَدَوْا هُدى﴾ [سورة مريم: 76].

وهٰذه الحقيقة يؤكّدها رســول الله ﷺ في هٰذا النــصّ النبويّ: «الْقُرْآنُ هُدًى مِنَ الضَّلَالِ وَتِبْيَانٌ مِنَ الْعَمَى وَاسْتِقَالَةٌ مِنَ الْعَثْرَةِ ونُورٌ مِنَ الظُّلْمَةِ» [الكليني، الكافي، ج 2 ص 601].

وأيضًا ما نجده في نصٍّ آخر للإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ فِي وَصِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِين عليه السلام لأَصْحَابِهِ: اعْلَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ هُدَى النَّهَارِ وَ نُورُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ» [المصدر السابق، ج 2 ص 600].

بعد هٰذه المقدمة القصيرة لكاشفية القرآن ونوريته وصدقه في القول والحديث، بل وهدايته للبشريّة كافّةً يأتي التساؤل العقلائيّ: هل رسم الله ـ تبارك وتعالى ـ لنا منهجًــا قرآنيًّا لتأصيل ما نؤمن به؟ ليكون أساسًـــا ومرتكزًا لبناء الدين، ومن ثمّ يكون هٰذا الإنسان منضبطًا سلوكًا وعملًا تجاه خالقه، بل والطبيعة والكون ونشأته ووجوده وغايته.

إنّ القرآن لم يترك الإنسان يســير على غير هدًى قطّ، بل رسم له منهجًا لبيان العقيــدة وما يؤمن به، ولٰكن قبل أن نلج في بيـــان تلك المناهج، نرى من خلال الســبر لآي الذكر الحكيم أنّ هناك بناءً فوقيًّا لتقريـــر العقيدة، يتجلّى تارةً بالهدم وتارةً بالتأسيس. هدم للموروث العشوائيّ القبليّ الفوضويّ، قال تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ آبَاءَنَا﴾ [سورة البقرة: 170].

أو قوله تعـــالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [ســورة الأحزاب: 67] وهناك بناءٌ وأســاسٌ عقلائيٌّ، وهو هداية الإنسان للأقوم والأصلح، فالله ـ تعالى ـ خلق له هٰذا الكون ليُعمل عقله وفق ســننه الّتي ســخرّها له، كما تقدم ذٰلك في أول البحث.

وبعد أن ألمَمنا بصورة مقتضبة لهٰذا الأسـلوب الربـاني في الاعتقاد، يفرض البحث علينا أن ننتقل إلى المناهج الّتي يمكن أن نَلحظها في بيان التأصيل القرآنيّ في نفس الإنسان ـ بحسب استقرائنا ـ وهي كالتالي:

1. المنهج الفطريّ الوجدانيّ

قبل الورود لبيان المنهج القرآنيّ في الفطرة، يحسن بنا أن نعطي توضيحًا مختصرًا لمعناها في اللغة والاصطلاح.

أ. الفطرة في اللغة:

قـال الفراهيدي في كتاب (العين): «وفَطَرَ الله الخلـق، أي: خلقهم، وابتدأ صنعة الأشـياء، وهو فاطِرُ السَّـماواتِ والْأَرْضِ» [الفراهيدي، العين، ج 7، ص 417]. وأشار ابن منظور إلى الفطرة بقوله: «الفطرة، بالكسر: الخلقة، وقد فطره يفطره، بالضم، فطرًا أي خلقه» [ابن منظور، لسان العرب، ج 12، ص56].

فالفطرة الّتي أوجدها الله في الإنسـان تعني (الخلقة)، وهٰذا ينسـجم مع قوله تعالى ﴿فِطْرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سـورة الروم: 30] ففطرة الله هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان بالله تبارك وتعالى.

ب. الفطرة في الاصطلاح:

الفطـرة: هي صفةٌ تكوينيّـةٌ، غير اكتسـابيّةٍ، موجودةٌ مع جبلّة الإنسـان وطبيعته، في عقله ووجدانه؛ لذا نجد من يطلق عليها العقل، بمعنى أنّه لا نحتاج إلى اسـتدلال للوصول إلى الحقيقة ولا نحتاج إلى أستاذٍ أو معلّمٍ. فالفهم الفطريّ في مجال المعرفة الإلٰهيّة من هٰذا القبيل، فالإنسان حينما يتدبّر في أعماق روحه يبصر نور الحقّ، ويسـمع نداءه بقلبه يدعوه إلى مبـدإ العلم والقدرة الّتي لا مثيل لها في عالم الوجود، مبدإ الكمال المطلق ومطلق الكمال، وهو حاضر في الفهم الوجدانيّ. [ظ: الشيرازي، نفحات القرآن، ج3 ص92، 93]

والإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطورٌ بفطرةٍ تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه، وتهتف له بما ينفعه وبما يضرّه في حياته، فللإنسان فطرةٌ خاصّةٌ تهديه إلى سنّةٍ خاصّةٍ في الحياة. فمن الضروريّ حينئذٍ أن يكون تجاه عمله سنّةٌ واحدةٌ ثابتةٌ يهديه إليه هادٍ واحدٌ ثابتٌ، وليكن ذلك الهادي هو الفطرة. [ظ: الطباطبائي، الميزان، ج 16، ص 79]

ويرادف لفظ الفطرة بمعنى الخلقة أو الطبيعة لفظٌ آخر لا يختلف عن معنى الفطرة، وهو مفردة (الصبغة) الواردة في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ [سورة البقرة: 138] وهي اللون الربانيّ الّذي لوّن الله به الناس في بداية التكوين، فالقرآن يبيّن أن للبشر فطرةً وصبغةً وهي فطرته الدينيّة، ودينه الإسلام، من آدم إلى الخاتم ﷺ. [ظ: مطهري، الفطرة، ص16]

القرآن ونداء الفطرة

والله ـ تبارك وتعالى ـ يخاطب ويناغم الفطرة الّتي غرسها في الإنسان، فيغذّيها وينمّيها، فالبارئ لهذه النفس لا يخاطبها بكونها منكرةً له، بل يلفت الإنسان إلى قدرته وعظيم إبداعه وجليل حكمته في صنعه، وجزيل نعمه على خلقه، فالخطاب القرآنيّ يدغدغ غفلة الإنسان، ويشعره أنه ليس منكرًا له جلّ شأنه، فالاعتراف واقعٌ، ولكن الداء في الغفلة، فيؤصّل فيه فطرته.

لذا نجد الشيخ جوادي آملي يؤكّد هذه الحقيقة، بقوله: «إنّما يحاول الوحي الإلهيّ أن يوقظ ويحرّك الفطرة الإنسانية؛ لكي يزدهر ويثمر ما عجنه الله ـ سبحانه ـ في فطرة الإنسان وطينته وهذا ما يسمّى بالتذكرة» [الآملي، العقيدة من خلال الفطرة في القرآن، ص14].

لذا فإنّ أغلب المفسّرين يذهبون إلى فطريّة الإيمان بالله، ويجعلون الإيمان به كسائر الغرائز المتأصّلة في البشر، فيبحث عنه فطريًّا وذاتيًّا، ويريد معرفة ما وراء الطبيعة فطريًّا أيضًا، وما كل ذلك إلّا لأنّ البحث عن الله والتفتيش عن

الخالق أمرٌ جُبل عليه الإنسان، وفطر عليه تكوينه، وعجنت به سريرته، فيميل إلى الإذعان بالله ذاتيًّا، بينما يكره الإلحاد ونكران الله ذاتيًّا كذٰلك. [سبحاني، مفاهيم القرآن، ج1 ص 41]

فالنفــوس جُبلت وفُطرت على معرفة خالقها منذ أن أخذ الله ـ تعالى ـ العهد والميثاق على أبناء آدم، قال تعالى: ﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ...﴾ [سورة الأعراف: 172].

وقد فسّر السيّد الطباطبائيّ مفردة (الإشـــهاد) في هٰذا النصّ القرآنيّ أنّه إشهاد على ربوبيّة الله تبارك وتعالى، فقوله: «أَلَسْـــتُ بِرَبِّكُمْ» يوضح ما أشـــهدوا لأجله وأريد شـــهادتهم عليه، وهو أن يشهدوا ربوبيته سبحانه لهم فيؤدوها عند المسألة. [الطباطبائي، الميزان، ج 8 ص 307]

فالله ـ ســـبحانه وتعالى ـ نصب لهـــم دلائل ربوبيّته، وركّـــب في عقولهم ما يدعوهـــم إلى الإقرار بها حتّى صاروا بمنزلة الإشـــهاد؛ على طريقة التّمثيل، نظير ذٰلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ [ســورة النحل: 40]، وقوله جلّ وعلا: ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ [ســورة فصلت: 11]. [الكاشاني، الآصفي في تفسير القرآن، ج1 ص 411]

عندما نتأمّل في بعض الآيات القرآنيّة، نجد أنّ نداء الفطرة يتجلّى بأمرين:

الأوّل: فطرة الإيمان بأصول الدين

وهٰذا ما نجـــده واضحًا في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلّدِينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّهِ الّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلك الدّينُ الْقَيّمُ﴾ [سورة الروم: 30].

في هٰذه الآية الكريمة إشارةٌ إلى فطريّة الدين بشكلٍ مطلقٍ، وليس الأمر مقتصرًا على معرفة الله والإيمان به فقط، بل وصف الدين بأصوله الّتي تعني تلك الكلّيّات الّتي تؤلّف أســـاس الدين الإلٰهيّ بكونه فطريًّا جبلّيًّا [ظ: ســبحاني، مفاهيم القرآن، ج1

ص41]، ومنها فطريّة التوحيد وغيره.

وهٰذا الإطلاق في معرفة الدين وجبلّيّته نجده في مفردات محمد عبده، بحيث فسّر هٰذه الفطرة بكونها الجبلّة الإنسانيّة الجامعة بين الحياتين: الجسمانيّة الحيوانيّة، والروحانيّة الملكيّة، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما، وما أودع فيها من غريزة الدين المطلق، الّذي هو الشعور الوجدانيّ بسلطانٍ غيبيٍّ فوق قوى الكون والسنن والأسباب الّتي قام بها نظام كلّ شيءٍ في العالم. [ظ: محمد رشيد، تفسير المنار، ج 12، ص 245]

ومن النصوص الّتي فسّرت الفطرة بشكلٍ عامٍّ، كالإسلام والتوحيد والولاية والمعرفة، هو ما نجده في بعض من رواياتنا الحديثيّة كالرواية الواردة عن هشام بن سالمٍ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قلت: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾؟ قال: التوحيد» [الكليني، الكافي، ج 2، ص 12].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام» [المصدر السابق، ج2، ص 12].

وعن أبي بصيرٍ، عن أبي جعفرٍ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قال: «هي الولاية» [المصدر السابق، ج1، ص 419].

وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾؟ قال: الحنيفيّة من الفطرة الّتي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، قال: فطرهم على المعرفة» [المصدر السابق، ج2، ص 12].

ووجه الجمع بين هٰذه النصوص هو أنّ المراد من الفطرة مجموع تعاليم الإسلام الأساسيّة، وهي كامنةٌ داخل الفطرة الإنسانيّة، بدءًا من التوحيد وانتهاءً بالقادة الإلٰهيّين وخلفائهم الصادقين؛ لذٰلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في حديث موجز العبارة غزير المعنى: «فبعث فيهم رسوله، وواتر إليهم أنبياءه؛ ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم م نسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن

العقول» [الرضي، نهج البلاغة، الخطبة الأولى ص 34].

فطبقًا للتعبير الوارد في نهج البلاغة، فإنّ عمل الأنبياء هو إثارة الفطرة، وتذكير الناس بالنعم الإلٰهيّة المنسيّة، ومن جملة هٰذه النعم الفطرة على التوحيد، واستخراج كنوز المعرفة الدفينة في روح الإنسان وأفكاره. [ظ: الشيرازي، الأمثل، ج 12، ص 529]

وهناك جمعٌ آخر ذكره الإمام الخمينيّ بقوله: «وهنا لا بدّ من معرفة أنّ الفطرة، وإن فُسرت في بعض النصوص بالتوحيد، إلّا أنّ هٰذا من قبيل بيان المصداق، أو التفسير بأشرف أجزاء الشيء، كأكثر التفاسير الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، وفي كلّ مرّةٍ تفسّر بمصداقٍ جديدٍ بحسب مقتضى المناسبة، فيحسب الجاهل أنّ هناك تعارضًا، والدليل على أنّ المقام كذٰلك هو أنّ الآية الشريفة تعدّ الدين (فطرة الله)، مع أنّ الدين يشمل التوحيد والمبادئ الأخرى» [ظ: الخميني، التوحيد والفطرة، ص2].

ثانيًا: فطرة الإيمان بوحدانيّة الله

من الآيات الّتي تشير إلى نداء الفطرة وتجليّاتها في أعماق وجود هٰذا الإنسان، وأنّ الإيمان به ـ تعالى ـ مزروعٌ في فطرته، غاية ما في الأمر أنّه غير ملتفتٍ لذٰلك، ولٰكن عندما يطرأ حدثٌ ما يهدّد حياته وكيانه ووجوده سرعان ما تعود به الفطرة إلى خالقه، فإنّ الإنسان لو خلّي ونفسه، فإنّه سوف يتّجه للإيمان بإلٰهٍ واحدٍ أو بقدرةٍ غيبيّةٍ واحدةٍ، إليها يرجع الأمر كلّه، ولا يستغني عنها أحدٌ من الناس، وهٰذا الإحساس الفطريّ بوحدانيّة الله هو الّذي يوقظ فطرة الإنسان ويقوده في الشدائد، ويدفعه إلى التخلّي عن كلّ الآلهة المصطنعين والتوجّه إلى الله الواحد القهار، وإن كان هٰذا الإحساس قد يخبو مرّةً أخرى، ويعود الإنسان إلى التعلّق بالآلهة والشركاء الموهومين بعد ارتفاع الشدائد والخلاص من المكاره. [ظ: الخشن، الدين والفطرة، الموقع الإلكتروني للمؤلف]

ومن هٰذه الآيات الّتي ذُكرت في هٰذا الصدد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا

اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين﴾ [سورة العنكبوت: 65]، وقوله تعالى: ﴿وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [سورة الروم: 33].

وقوله تعالى ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَة فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُون﴾ [سورة النحل:53].

تشير الآيات الشريفة إلى أنّ الإنسان مقبلٌ على خالقه وموحّدٌ له بفطرته ووجدانه، فبمجرّد تعرّضهم للخطر دعوا الله بإخلاصٍ، فهم أناسٌ لم تنطفئ شمعة فطرتهم، وتذكّرهم لله خالٍ من الشوائب، ودعاؤهم مقترنٌ بالإخلاص لله الواحد الأحد الّذي هو المنقذ لهم في جميع أمورهم. [آملي، العقيدة من خلال الفطرة في القرآن ص46]

فقوله ـ تعالى ذكره ـ يشير إلى أنّ هٰؤلاء المشركين إذا ركبوا السفينة في البحر، وخافوا الغرق والهلاك فيه دعوا الله مخلصين له الدين، وأخلصوا لله عند الشدّة الّتي نزلت بهم بالتوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبوديّة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم [ظ: الطبري، جامع البيان، ج21، ص17] إذ يوجد في داخل قلب الإنسان دائمًا نقطةٌ نورانيّةٌ، وهي خطّ ارتباطه بما وراء عالم الطبيعة، والطريق إلى الله، غير أنّ التعليمات الخاطئة والغفلة والغرور ـ وخاصّةً عند السلامة ووفور النعمة ـ تلقي عليها أستارًا، غير أنّ طوفان الحوادث يزيل هٰذه الأستار، وتتجلّى نقطة النور آنذاك.

وعلى هٰذا، فإنّ أئمّة المسلمين كانوا يرشدون المتردّدين في مسألة (معرفة الله) الغارقين في الشكّ والحيرة، إلى هٰذا الأصل. [ظ: الشيرازي، تفسير الأمثل، ج12، ص449] أي أنّهم يذكّرونهم بهٰذه الآيات الشريفة، الّتي تتجلّى فيها الفطرة والارتباط بالله ـ تعالى ـ من خلال الشدائد الّتي يمرّ بها الإنسان، وسرعان ما تعود فطرتهم إليه جلّ شأنه.

شبهة عدم فطريّة الاعتقاد بالله

هناك شبهةٌ قد تكون عالقةً في بعض الأذهان ومفادها: من قال إنّ جذور الدين عميقة في فطرة الإنسان ووجدانه؟ مع العلم أنّنا نجد بالحسّ والمشاهدة أنّ مختلف الأديان والملل تؤصّل وتبحث عن الدين وعن الإله، وهٰذا ما نجده على طول التاريخ البشريّ، فــإذا كان الأمر فطريًّا لما كانت هناك حاجةٌ لــكلّ هٰذه الأدلّة على وجود الإلٰه؟

الجواب:

قد تقدّم أنّ الإنسان مقرٌّ بربوبيّة الله بمقتضى العهد والميثاق الإلٰهيّ، وأيضًا ما نجده في الواقع الخارجيّ عندما يستشعر الإنسان بالخطر الحقيقيّ فيلجأ بفطرته إلى الله تعالى، والسببُ في غياب الفطرة هو الركام الثقافيّ الّذي ينشأ تحته الإنسان وفي محيطه الأسريّ والاجتماعيّ.

فالمنطق العقلائيّ يرشــدنا إلى أنّه في قرارة كلّ إنسانٍ ميلٌ إلى الحقيقة والقدرة المطلقة، والعلم المطلق، ففطرة الإنســان تبحث عــن الوجود المطلق، وغايته هو الحيّ الّذي لا يموت، وسريرة الإنسان تنزع إلى تلك الحقيقة. [ظ: جوادي آملي، العقيدة من خلال الفطرة في القرآن، ص 29]

ومن هنا نعتقد أنّه لا خلاف في أصل (وجود الله) والالتفات إلى ما وراء المادّة، وإنّما الخــلاف وقع في خصوصيات هٰذا الاعتقاد، وليس في جوهره وأصله. وبهٰذا يتّضح أنّ الصراع قائمٌ حول التفاصيل والخصوصيّات، وأمّا أصل العقيدة والإيمان بوجــود الله فقد اتّفقت عليــه كلمة البشريّة على مدار التاريخ الإنســانيّ الطويل [سبحاني، مفاهيم القرآن، ج 1 ص 38]؛ لذا نجد بعض علماء الغرب يقرّ بهٰذه الحقيقة.

يقول ماكس مولر: «لقد خضع أسلافنا (لله) في عصور لم يكونوا قادرين فيها حتّى على إطلاق اسمٍ على الله» [المصدر السابق، ج 1 ص 38].

ويقول ويليـــم جيمز: «إنّي أقرّ تمامًا بأنّ القلب هو المصدر للحياة الدينيّة» [ظ: الشيرازي، نفحات القرآن، ج3 ص 98] ويقصد بالقلب الفطرة، بمعنى (الوجدان).

وهناك قراءةٌ وتأصيلٌ للشهيد مطهري حول فطريّة المعرفة بالله تعالى، وناقش أفكارًا كثيرةً لفلاســفة الغرب [أفلاطون وهيوم وجون لوك وكانط] وغيرهم. ووصل إلى نتيجةٍ مؤدّاها: أنّ في الإنســان فطرةً وأن ما أتى به الأنبياء كان استجابةً لنداء هٰذه الفطرة، وللرغبة الكامنة في أعماق الإنسان. فالعلماء قد يختلفون في تعبيراتهم عن الفطرة ولٰكنّ مبدأ القول بوجود اسم الفطرة، وأنّ التوحيد في طبيعة الإنسان، فذاك ممّا لا يختلف عليه. [مطهري، الفطرة، ص 196 و197]

إذن هناك نزوعٌ فطريٌّ نحو بارئ هٰذه النفس، يدركه كلّ فردٍ من بني الإنسان، وهٰذا الإدراك وجدانيٌّ قلبيٌّ، يتحسّــس ويشعر بوجود صانعٍ لهٰذا الكون، ويعلم به علمًا حضوريًّا؛ ولذا نجد هٰذا المعنى جليًّا في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام حينما قال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، بل تدركه القلوب بحقائق الإيمان» [محمد عبده، شرح نهـج البلاغة، خطبة 174]. وقول الإمام الحســين عليه السلام في دعاء عرفة: «متى غبت حتّى تحتاج إلى دليلٍ، عميت عينٌ لا تراك» [القمي، مفاتيح الجنان، ص 339]، من هنا يتبيّن أنّ الشبهة واهيةٌ وغير تامّةٍ.

تطبيقات المنهج الفطريّ في القرآن

نقصد بالتطبيق في هٰذا البحث الحقل والنطاق الّذي نرى للفطرة مســاحةً له، وإنّ الوجــدان البشريّ ينفعل ويتفاعل مع ما يــراه من آيات الكون وظواهره الّتي تدفعه دفعًا للإيمــان بخالقٍ لهٰذه الحياة، ولعلّنا نلمــس ذٰلك من خلال الظواهر القرآنيّة التالية:

1. ظاهرة الرزق:

القرآن الكريم يُلفت الأنظــار إلى قدرته ـ تعالى ـ وجليل حكمته في صنعه، فيحيي فطرته ويمهّد الإنسان إلى العود إلى ربّه وخالقه، ومن الآيات في هٰذا المجال:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر: 3]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [سورة الملك: 21]، وغيرها من الآيات.

فلو تأمّل الإنسان منطوق هٰذه الآيات الشريفة واستنطقها بعقلٍ مجرّدٍ، سيجد أنّ الفطرة تدلّه على الإيمان والتصديق بخالقٍ وهب له الحياة والرزق، فأفاض عليه من نعمه الّتي لا تُعدّ ولا تُحصى، فالخطاب القرآنيّ يناغم الفطرة الإنسانيّة، ويؤكّد لها أنّ الله لا يغفل عنكم، وهو الّذي يرسل لكم من السّماء نور الشمس الّذي يهبُ لكم الحياة، وقطرات المطر الّتي يحيي بها الأرض، والنّسيم الّذي يُنمي الأرواح، ومن الأرض يُنبت لكم أنواع النباتات والفواكه، وفي باطنها أنواع المعادن والثروات. فلا بدّ لكم أن تعرفوا أن لا معبود سواه، وهو وحده الجدير بالعبادة، فكيف تنحرفون عن الصراط المستقيم وتجعلون هٰذا الخالق العظيم واهب الرزق وراء ظهوركم، وتسجدون لغيره. [انظر: الشيرازي، نفحات القرآن، ج2 ص 277]

إنّ فطرتكم الّتي أوجدها فيكم تأبى ذٰلك ولا بدّ أن تستجيب لهٰذا النداء الربّانيّ، فحديث القرآن يلفت انتباه الإنسان إلى فطرته، ويمهّد له الطريق لعودته إلى ربّه، وذٰلك بإشعاره أنّه ليس من شأنه أن يكون منكرًا، نعم، قد يكون غافلًا، ولٰكن عندما ينبّههم يعترفون بالحقّ، فعندما يستفهمهم - جلّ وعلا - عن الرزق أو الموت، تجدهم يذعنون، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس: 31].

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [سورة فاطر: 3] ينقل عن بعض المفسّرين قولهم: «لمّا قرّر في الآية السابقة أنّ الإعطاء والمنع لله سبحانه لا يشاركه في ذٰلك أحدٌ، احتجّ في هٰذه الآية بذٰلك على توحّده في الربوبيّة، وتقرير الحجّة أنّ الإلٰه إنّما يكون إلٰهًا معبودًا لربوبيّته، وهي ملكة تدبير أمر الناس وغيرهم، والّذي يملك تدبير الأمر بهٰذه النعم الّتي يتقلّب فيها الناس وغيرهم ويرتزقون بها هو الله - سبحانه - دون غيره من الآلهة الّتي اتّخذوها؛ لأنّه - سبحانه - هو الّذي خلقها

دونهم، والخلق لا ينفكّ عن التدبير ولا يفارقه، فهو ـ سبحانه ـ إلٰهكم لا إلٰه إلّا هو؛ لأنّه ربّكم الّذي يدبّر أمركم؛ بهٰذه النعم الّتي تتقلّبون فيها، وإنّما كان ربًّا مدبّرًا بهٰذه النعم؛ لأنّه خالقها وخالق النظام الّذي يجري عليها» [الطباطبائي، الميزان، ج 17 ص 15].

2. ظاهرة الحياة والموت

تتناول ظاهرة الحياة والموت الفكر الإنسانيّ بشكلٍ عامٍّ، ففكرة الموت وانتهاء الحياة، تشكّل هاجسًا عند الإنسان؛ لذٰلك تجده دائم التفكير بها، فتراه يستفهم ويسأل نفسه: لماذا جئت إلى الدنيا؟ ولماذا أذهب؟ وماذا سأواجه بعد الموت؟

هنا يأتي دور الفطرة والوجدان ليعود الإنسان إلى خالقه، والقرآن الكريم في آياتٍ كثيرةٍ يُلفت الإنسان إلى حقيقة وجود الله تبارك وتعالى، وأنّه هو المدبّر والربّ والوارث، وبذٰلك يزيل عنه ما كان يثيره من تساؤلاتٍ، فيهزّ وجدانه بها ويوقظه نحو بارئه، ومن الآيات الّتي جاءت لبيان هٰذه الحقيقة، قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة الروم: 40]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: 28].

عند التأمّل في منطوق هٰذه الآيات الشريفة نجد أنّ القرآن يناغم فطرتهم، ويلامس وجدانهم؛ ليبعدهم عن الشرك بالله؛ ولذا نجد أنّ القرآن الكريم وجّه الخطاب إلى المشركين كذٰلك، وقد أشار بعض المفسّرين قائلًا: «لعلّ هٰذا التعبير هو لأنّ مسألة المعاد والحياة بعد الموت لها "جنبةٌ" فطريّةٌ، والقرآن هنا لا يستند إلى معتقداتهم، بل إلى فطرتهم» [الشيرازي، الأمثل، ج 12 ص 543].

هٰذا خطابٌ للفطرة بكل تجليّاتها، وهو حاضرٌ في وجدان الإنسان ونفسه، فيتقبله شيئًا فشيئًا؛ ليكون راسخًا ومغروسًا في عقيدته.

2. المنهج العقليّ:

لقد اهتمّ القرآن بالعقل وأعطاه ميزةً كبيرةً؛ لأنّ العقل هو أداة التفكير، والأداة الّتي يعقل بها الإنسان، فهو الحجّة الباطنة، كما أنّ الرسل هم الحجّة الظاهرة [ظ: الكليني، الكافي، ج1 ص16]، وهو المعيار للتمييز بين الخير والشرّ، بل إنّ إدراك الخير كلّه يكون بواسطة العقل، فعن رسول الله ﷺ، قال: «إنّما يدرك الخير كلّه بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له» [ظ: الحراني، تحف العقول، ص44]، «فالعقل جعله الله زينةً لخلقه ونـــورًا لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنّهم مخلوقون، وأنّه المدبِّر لهم، وأنّهم المدبَّرون، وأنّه الباقي وهم الفانون، واســـتدلّوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وبأنّ لهم خالقًا ومدبّرًا، لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحســـن من القبيح، وأنّ الظلمة في الجهل، وأنّ النور في العلم، فهٰذا ما دلّهم، عليه العقل» [ظ: الكليني، الكافي، ج1 ص29].

والإسلام هو دين العقل والتعقّل والفكر، فالعقل نعمةٌ كبيرةٌ وهبها الله لنا، وهٰذه الهبة العظيمة هي وسيلةٌ ربّانيّةٌ لتســـديد خطوات الإنسان نحو الأصلح والأكمل، ولعلّنا لا نجد سورةً من القرآن إلّا ونجد للعقل نصيبًا فيها؛ ومن هنا لا بدّ لنا أن نفهم أوّلًا ماهيّة العقل؟ ومن ثمّ نلج في تطبيقاته في العقيدة من القرآن.

تعريف العقل

العقل كأيّ مفهومٍ آخر له معانٍ مختلفـــةٌ في أصل اللغة، اختصرها ابن منظورٍ في ثلاثة موارد، هي: المنع، والجمع، والحبس والإمســـاك [ظ: ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص 458 و459]. وكلّهـــا تعطي معنًى واحدًا وهو المنع، ســـوى مفردة الجمع، وبالتأمـــل فهي تعود أيضًا إلى المنع، قالوا: «عَقَلْت البَعيرَ إذا جَمَعْت قوائمه» [المصدر الســـابق، ص458]، أي منعت قوائمه ولا يستطيع الحركة. ولعلّ وجه التسمية بالمنع هي كونه يمنع صاحبه عن التورّط في المهالك، ويحبسه عن ذميم القول والفعل [ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 4 ص 69]. فالعقل يمسك ما علمه، ويضبط ما فهمه فهو عقولٌ وعاقلٌ.

وللعقل في الاصطلاح أيضًا تعريفاتٌ مختلفةٌ، فهناك من يصفه: بأنّه «غريزةٌ يلزمها العلم بالضروريّات عند سلامة الآلات» [الخواجة الطوسي، كشف المراد، ص 251]. وهناك من يرى أنّ: «لفظ (العقل) مشترك بين قوى النفس الإنسانيّة وبين الموجود المجرّد في ذاته... أمّا القوى النفسانيّة فيقال عقلٌ علميٌّ وعقلٌ عمليٌّ. والعلميّ هو الّذي من شأنه الاستعداد المحض من غير حصول علمٍ ضروريٍّ أو كسبيٍّ.. وأمّا العمليّ فيطلق على القوّة الّتي باعتبارها يحصل التميّز بين الأمور الحسنة والقبيحة وعلى المقدّمات الّتي يستنبط بها الأمور الحسنة والقبيحة وعلى فعل الأمور الحسنة والقبيحة» [المصدر السابق، ص 251 و 252].

وهناك من فسّره: بأنّه القوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للّذي يستنبطه الإنسان بتلك القوّة (عقلٌ) [ظ: الغزالي، إحياء علوم الدين، ص124]، وهناك من يذهب إلى أنّه: أداة الإدراك والفهم، والنظر والتلقّي والتمييز والموازنة، وهو وسيلة الإنسان لأداء مسؤوليّة الوجود والفعل، في عالم الشهادة والحياة [أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ص 119].

ومن خلال ما تقدّم، فالعقل هو ملكةٌ وقوّةٌ مودعةٌ في النفس؛ لإدراك حقائق الأشياء وتمييزها وفهمها بشكلٍ صحيحٍ.

العقل في النص القرآنيّ

العقل في القرآن يمكن تعريفه بأنه: النور الّذي أفاضه الله سبحانه على الأرواح الإنسانية، فهو ملاك التكليف والثواب والعقاب، وبه يجب الإيمان وما يترتب عليه وتصديق الأنبياء والإذعان لهم، وبه يتميّز الحق من الباطل والشر من الخير والرشد من الغي، وبه يعرف الحُسن والقُبح والجيد والرديء والواجبات والمحرّمات الضروريّة العقليّة الذاتيّة، ومكارم الأخلاق ومحاسنها ومساوئ الأعمال ورذائلها [انظر، الملكي، توحيد الإمامية، ص 21].

ومن هنا نجد النص القرآنيّ يخاطب العقل ويحثه على إعماله؛ لإدراك معرفة الله تبارك وتعالى، فتارةً يأتي الخطاب بلفظ (الألباب)، وتارةً بلفظ (النهى)، وأخرى

(التفكّر) أو (التفقّه) وعلى سبيل المثال نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿كَذٰلك يُبَيّنُ الله لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: 242].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أولُو الْأَلْبَاب﴾ [سورة إبراهيم: 52]، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوا أنعامَكُمْ إنَّ في ذٰلك لآيات لأولي النُّهى﴾ [سورة طه: 54].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى وَالْبَصِيرُ أفَلا تتفكَّرُون﴾ [سورة الأنعام: 50]، وقوله تعالى: ﴿أنْظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ لَهُم الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: 65].

منطوق هٰذه الآيات الكريمة يشير إلى أنّ الله وهب لهٰذا الإنسان العقل، ولا بدّ أن يتأمّل ويفكّر لينال الحقائق، ومن ثمّ يفقهها بشكلٍ منطقيٍّ؛ لأنّ معرفة الله ـ تعالى ـ بالأساس حكمٌ عقليٌّ، ولا يجوز التقليد في مسائل الاعتقاد من التوحيد والنبوّة والمعاد، فلا بدّ من التأمّل في نظام الكون بشكلٍ عامٍّ، والتأمّل في جمال الخلق من خلال ما أبدعته اليد الإلٰهيّة، وهٰذا كلّه كاشف عن أنّ العقل له أهمّيّةٌ كبيرةٌ، بحيث يعدّ الطريق والأداة لمعرفته جلّ وعلا؛ لذٰلك فالقرآن يعدّه مصدرًا أساسيًّا لاستنباط الكثير من المعارف وفي كلّ مناحي الحياة. يقول بعض المفسّرين: «إنّ الله ـ تعالى ـ أمر الناس بإعمال العقل والفكر في الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة إجمالًا في موارد من كلامه، وتفصيلًا في موارد أخرى كخلق السماوات والأرض والجبال والشجر والدوابّ والإنسان واختلاف ألسنته وألوانه، وندب إلى التعقّل والتفكّر والسير في الأرض، والنظر في أحوال الماضين وحرّض على العقل والفكر ومدح العلم بأبلغ المدح» [الطباطبائي، الميزان، ج3 ص 57].

هٰكذا نجد الشهيد الصدر يؤكّد على العقل الاستدلاليّ ومكانته في الإسلام، يقول: «في رأي الإسلام لإنشاء الفكر الحرّ يجب أن ينشئ في الإنسان العقل الاستدلاليّ أو البرهانيّ الّذي لا يتقبل فكرة دون تمحيصٍ، ولا يؤمن بعقيدةٍ ما لم تحصل على برهانٍ؛ ليكون هٰذا العقل الواعي ضمانًا للحرّيّة الفكريّة، وعاصمًا للإنسان من التفريط بها، بدافعٍ من تقليدٍ أو تعصّبٍ أو خرافةٍ. وفي الواقع إنّ هٰذا

جزءٌ من معركة الإســـلام لتحرير المحتوى الداخليّ للإنسان، فهو كما حرّر الإرادة الإنســـانيّة من عبوديّة الشهوات كما عرفنا سابقًا، كذٰلك حرّر الوعي الإنسانيّ من عبوديّة التقليد والتعصّب والخرافة. وبهٰذا وذاك فقط أصبح الإنسان حرًّا في تفكيره وحرًّا في إرادته» [الصدر، المدرسة القرآنيّة، ص 106].

العقل في النصّ الروائيّ

وأمّا النصّ الروائيّ: فأنقل في هٰذا المجال روايةً للشـــيخ الكلينيّ ـ طيّب الله ثراه ـ في كتابه (الكافي) بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام، قال:

«دعامة الإنســـان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم، وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالمًا، حافظًا، ذاكرًا فطنًا، فهمًا، فعلـــم بذٰلك كيف، ولم، وحيث، وعرف من نصحه ومن غشّـــه، فإذا عرف ذٰلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانيّة لله، والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذٰلك كان مستدركًا لما فات، وواردًا على ما هو آتٍ، يعرف ما هو فيه، ولأيّ شيءٍ هو ها هنا، ومن أين يأتيه، وإلى ما هو صائرٌ، وذٰلك كلّه من تأييد العقل» [الكليني، الكافي، ج 1 ص 25].

والتأمّل في دلالة هٰذا النصّ الّذي يتواءم ويتوافق تمامًا وينسجم مع روح القرآن ومضمونه يكشف أنّ العقل هو الدعامة والأســـاس لكلّ المعارف والعلوم، بل إنّ إثبات الإنســـانيّة للإنســـان وتحقّقها وقيام معناها إنّما هو بالعقل، كما أنّ إثبات الســـقف وقيامه بالعماد؛ لظهور أنّ الإنســـان ليس مجرّد هٰذا الهيكل المخصوص، وإلّا لما كان بينه وبين الصور المنقوشـــة على الجدار أو المصنوعة من الحجر والخشب فرقٌ، بل الإنسان إنسانٌ بما وجد فيه من العقل الّذي هو منشأ المعارف والكمالات ومبدأ العلوم والملكات. [انظر، المازندراني، شرح أصول الكافي، ج1 ص305]

تطبيقات المنهج العقليّ في القرآن

من الأمور الّتي تــكاد تكون واضحةً هي أنّ خطابات القرآن للإنســان تأتي بمنطقٍ ســهلٍ ومؤثّرٍ، بحيث يخاطــب العقل بلغته والوجــدان بلغته، ولعلّ سرّ الإبداع في القرآن يكمن في هٰذه الصفة، صفة الوضوح والجاذبيّة ومن ثمّ الإيمان والتصديق. وفي هٰذا المجال سوف نذكر بعض الآيات القرآنيّة الّتي تصبّ في ترسيخ عقيدة الإنسان من خلال هٰذا المنهج.

1. الاعتقاد بالصانع المدبِّر

وهٰذا ما نلمســه في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: 164].

الآية الكريمة تشير إلى نظام العليّة والمعلول، فحركة الشمس والقمر والنجوم وتقلّب الليل والنهار وكيفيّــة إنبات النبات، وإحياء الأرض وحركة الرياح، كلّها تكون خاضعةً لنواميس وقوانين تحكمها، وإنّ من ورائها مدبّرًا حكيمًا قديرًا، فلا بدّ للإنســان من إعمال العقل للوصول إلى الإيمان بهٰذه الحقائق، وبأنّ لها موجدًا وصانعًا ومدبّرًا. قال السيّد الطباطبائيّ في تفسير هٰذا النصّ القرآنيّ: «وإجمال الدلالة أنّ هٰذه الســماوات الّتي قد علتنا وأظلّتنا على ما فيها من بدائع الخلقة، والأرض الّتي قد أقلّتنا وحملتنا مع عجيب أمرها وســائر ما فيهــا من غرائب بالتحوّلات والتقلّبــات كاختلاف الليل والنهار، والفلك الجارية، والأمطار النازلة، والرياح المصرّفة، والســحب المسخّرة؛ أمورٌ مفتقرةٌ في نفسها إلى صانعٍ موجدٍ، فلكلٍ منها إلٰهٌ موجدٌ، وهٰذا هو الحجّة الأولى» [الطباطبائي، الميزان، ج 1 ص 396].

كما نجد التفاتةً للفخر الرازي في ترتيب هٰذه الموارد (خلق السماوات والأرض، ثمّ اختلاف الليل والنهار، ثمّ الفلك الّتي تجري...)، بقوله: «وأظنّ أنّ ســبب هٰذا الترتيب أنّه قيل إن كنتم من المؤمنين فافهموا هٰذه الدلائل، وإن كنتم لســتم من

المؤمنين بل أنتم من طلّاب الحقّ واليقين فافهموا هٰذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين، فلا أقلّ من أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هٰذه الدلائل» [الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج27 ص 260].

فالآية ترسّخ بشكلٍ واضحٍ عقيدة الإنسان وتأصيلها في النفس الإنسانيّة، من خلال حجّيّة العقل، والنصوص الروائيّة لا تبتعد عن روح القرآن، فالإمام الكاظم عليه السلام يخاطب هشام بن الحكم بقوله:

«يا هشام، إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيّين بالبيان، ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة، فقال: ﴿وَ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: 163 و164] [الكليني، الكافي، ج 1 ص 13].

2. الاعتقاد بالنبوة

القرآن الكريم له أسلوبٌ خاصٌّ في ترسيخ الاعتقاد بعقيدة النبوّة، بحيث يرسّخها في عقول بعض المشركين من خلال إنكاره لنمط تفكيرهم الساذج، فقد كانوا يرون أنّ النبيّ يجب أن لا يكون بشرًا من سنخهم، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: 94] فعقلهم لا يتقبل ذٰلك؛ لذٰلك طالبوا بأن يكون لهٰذا الرسول ملك يسدّده بالإنذار؛ لكي يؤمنوا به، كما نجده في بعض الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 7].

كذٰلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [سورة الأنعام:8]؛ لذٰلك جاء الإنكار القرآنيّ لإثارة عقولهم، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: 95].

فكلمة (قُلْ) جواب لشبهتهم، لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون كما يمشي بنو آدم مطمئنّين ساكنين فيها؛ لنزّلنا عليهم من السماء ملكًا رسولًا؛ لتمكّنهم من الاجتماع به والتلقّي عنه. وأمّا الإنس فعامّتهم عماةٌ عن إدراك الملك والتلقف منه، فإنّ ذٰلك مشروطٌ بنوعٍ من التناسب والتجانس، وليس إلّا لمن يصلح للنبوّة. [الفيض الكاشاني، تفسير الأصفى، ج3 ص 223]

ثمّ يخاطبهم تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ... قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة الأنعام: 9ـ11]، فهٰذه دعوةٌ صريحةٌ للعقول، الّتي لا بدّ أن تتعاطى وتفكّر وتهتدي للإيمان بالنبيّ الّذي جاء لخيرهم وهدايتهم إلى الطريق المستقيم.

كذٰلك الحال نجد إنكار القرآن عليهم في مسألة السحر والشعر الّذي اتّهم به النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء: 27] والقرآن يدحض هٰذه الدعاوى من خلال العقل، ويرسّخ مفهوم النبوّة في فكرهم، وهٰذا ما نجده صريحًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة سبإ: 46]، والمعنى أنّ رسول الله أمرهم بإعمال العقل، وذٰلك بأن تنهضوا وتنتصبوا لوجه الله، متفرّقين حتّى يصفو فكركم، ويستقيم رأيكم اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، وتتفكّروا في أمري، فقد صاحبتكم طول عمري على سدادٍ من الرأي وصدقٍ وأمانةٍ ليس فيّ من جِنَّةٍ، ما أنا إلّا نذيرٌ لكم، فصحبتي ممتدّةٌ أربعين عامًا من حين الولادة إلى حين البعثة، ولم تعهدوا منّي اختلالًا في فكرٍ أو خفّةٍ في رأيٍ أو أيّ شيءٍ يوهم أنّ بي جنونًا [انظر: الطباطبائي، الميزان، ج 16، ص 388] أليس هٰذا دليلًا عقليًّا لصحّة نبوّتي الّتي أنبأكم الله بها؟!

3.الاعتقاد بالبعث والحساب

القرآن الكريم يؤصّل لنا بالدليل العقليّ مسألة البعث والحساب؛ ومن العبث أن يكون وجود هٰذا الإنســـان في هٰذه الدنيا للّهو واللعب، بل هناك حساباتٌ إلٰهيّةٌ دقيقةٌ، فلا يترك ســـدًى أبـــدًا، ولا بدّ من تكليفه ومن ثمّ الجـــزاء الإلٰهي. ومن الشواهد على ذٰلك:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ [سورة الحج: 5].

وهٰذا خطابٌ عامٌّ وشامل للناس، بعدم الشكّ والريب بيوم البعث، وإن فُرض هٰذا الريب، فدلائل العقل واضحةٌ وشـــاهدةٌ في خلقتكم على هٰذا التدرّج الرتبيّ، وهٰذا دليلٌ على قدرته وحكمته جلّ شأنه، وإنّ من قدر على خلق البشر من التراب والماء أوّلًا، ثمّ من نطفةٍ ثانيًا، مع أنّه لا تناســـب بين التراب والماء، ثمّ قدر على أن يجعل النطفة علقةً، وبينهما تباينٌ ظاهرٌ، ثمّ يجعل العلقة مضغةً والمضغة عظامًا، فهـــو إذن قادرٌ على إعادة ما بدأه، بل هو أدخل في القدرة من تلك و أهون، وأفعاله هٰذه يتبيّن بها من قدرته وعلمه مـــا لا يحيط به الوصف و لا يكتنهه الذكر. [انظر: خطيب شربيني، السراج المنير، ج 2 ص 596]

فالله ـ تعالى ـ من خلال هٰذه الآثار الّتي يراها الإنســـان بعينه المجردة، يسوق لنا دليلًا عقليًّا ليرسّـــخ عقيدة الإنســـان، وأنّ البعث ممكنٌ، وذٰلك بإزالة الريب عنكم، فإنّ مشـــاهدة الانتقال من التراب الميّت إلى النطفـــة ثمّ إلى العلقة ثمّ إلى المضغة ثمّ إلى الإنســـان الحيّ، لا تدع ريبًا في إمكان تلبّـــس الميّت بالحياة. [انظر: الطباطبائي، الميزان، ج 4 ص 344]

فالدلائل كلّها تشير لهٰذه الحقيقة، وهٰذا ما نجده في آيةٍ صريحةٍ أخرى، وذٰلك في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً

فَخَلَقَ فَسَوَّى ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأنثَى ۝ أَلَيْسَ ذٰلك بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [سورة القيامة: 36_40].

فالعقل هنا يمنع أن تكون الحياة عبثًا بلا مدبّرٍ وخالقٍ لهٰذه النفس الإنسانيّة، فهو الحكيم القادر على أن يحييها ثمّ يميتها ثمّ ينشرها، وكلّ ذٰلك عليه يسيرٌ.

أيضًا من الأدلّة الّتي ساقها الله ـ تبارك وتعالى ـ في هٰذا المجال، إخراج الأشياء من أضدادها، كإخراج الحيّ من الميّت والميّت من الحيّ، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذٰلك تُخْرَجُونَ﴾ [سورة الروم: 19].

هٰذه الآية الكريمة يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدلّ خلقه على كمال قدرته، فمن ذٰلك إخراج النبات من الحبّ، والحبّ من النبات، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن [ظ: الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج3 ص 438]، فميدان المعاد وميدان نهاية الدنيا المتمثّل أحدهما بخروج الحيّ من الميت، والآخر بخروج الميّت من الحيّ، يتكرّران أمام أعين الناس، فلا مجال للتعجّب من أن تحيا الكائنات جميعًا، ويعود الناس في يوم القيامة إلى الحياة مرّةً أخرى. [انظر، الشيرازي، الأمثل، ج 12 ص489]

3.المنهج الجدليّ الإقناعيّ

من يتأمّل في آيات القرآن ويتدبّر فيها يجد أن قواعد الإيمان والعقيدة لم تُفرض بشكلٍ قسريٍّ وإلزاميٍّ، بل الله ـ جلّ وعلا ـ أعطى للذهن البشريّ الفسحة في إجالة الفكر وإعمال الذهن، فأعطى للجدل والمناقشة دورًا كبيرًا، لا سيّما في الأمور الّتي تمسّ عقيدة الإنسان، فأسلوب الإقناع من خلال الجدل المنطقيّ والحجّة والبرهان هو المنهج المتّبع للوصول إلى الحقيقة، ولٰكن يجب أن يكون بالّتي هي أحسن وأرفق بالآخر، ولعلّ أوضح مثالٍ على ذٰلك قوله تعالى للمشركين الّذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [سورة الزخرف: 23 و24]، فهٰذا الرفق والتلطّف في قوله تعالى:

﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى﴾ يدعم الحجّة ويشفع لها عند من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ. [ظ: الشيرازي، الأمثل، ج 12 ص 489]

ومعلومٌ أنّ منهجيّة الجدل والإقناع قوامها العقل، والمفترض أن نُلحق هٰذا البحثَ بالمنهج العقليّ، ولٰكن إنّما أفردناه باستقلالٍ هنا؛ لكي نوضح للقارئ أنّ للقرآن أكثر من أسلوبٍ في طرح العقيدة والإيمان بها، ولبيان أنّ هٰذا الأسلوب القرآنيّ أكثر رسوخًا وتعميقًا للنفس في زرع العقيدة عند الإنسان.

تعريف الجدل:

للجدل في اللغة معانٍ كثيرة منها: اللدد في الخصومة والقدرة عليها.. ومنها شدّة الفتل، ومنها المناظرة والمخاصمة. والمراد به الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لإظهار الحقّ، فهو محمودٌ لقوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن﴾ [ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص103 ـ 105] ومنها: التخاصم بما يشغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصواب، ثمّ استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلّة؛ لظهور أرجحها، وهو محمودٌ إن كان للوقوف على الحقّ، وإلّا فمذمومٌ. [الزبيدي، تاج العروس، ج14 ص 102]

أمّا الجدل في الاصطلاح فهو ما استعمل في لسان حملة الشرع كما تقدّم في المعنى اللغويّ، في مقابلة الأدلّة، وهو محمودٌ إن كان للوقوف على الحقّ، وإلّا فهو مذمومٌ، وقد وردت عدّة أحاديث في ذمّ الجدل والنهي عنه، وجدل القرآن ومناقشاته تختلف عمّا هو مألوفٌ من المنازعة والصراع، بل هو جدلٌ مبنيٌّ على براهين واضحةٍ يفهمها المخاطب، وبالّتي هي أحسن ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالّتي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: 125].

أيضًا نجد أنّ القرآن الحكيم سلك في تقرير العقيدة منهجًا يقوم على تصريف وتفصيل الآيات وبيانها بشكلٍ منطقيٍّ وموضوعيٍّ، قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: 65]، وتصريف الآيات أي: انظر كيف نوضّح لهم المعالم والدلائل؛ على أمل أن يفهموا الحقائق ويعودوا إلى الله. [الشيرازي، الأمثل، ج4 ص326]

تطبيقات المنهج الجدليّ الإقناعيّ في القرآن

الجدل القرآنيّ يقوم على أساس العقل كما تقدّم ووضّحنا ذٰلك، والهدف منه اظهار الحقّ والإيمان به، وبأسلوبٍ مقنعٍ ومرضٍ عند الآخر، لا سيّما من أراد طلب الحقّ، وقد سجّل القرآن الكريم عددًا من الوقائع والاعتراضات من المشركين وغيرهم وأبطل حججهم ببيانٍ شافٍ ووافٍ، ومن الطرق الّتي سلكها القرآن لغرس العقيدة في هٰذا المجال:

1. وجود الله تعالى

وذٰلك من خلال الاستدلال على وجود الله ـ تعالى ـ بوجود الأثر على وجود المؤثّر، وهٰذا ما نلحظه في سيرة النبيّ إبراهيم عليه السلام في مناظرته مع قومه، حينما قال لهم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا..﴾ [سورة الأنعام: 76 و77]، فكانت محاججته على سبيل الافتراض أو المجاراة والمماشاة والتسليم، ليصل إلى المبتغى، وهو إثباته لوجوده تبارك وتعالى، في هٰذه الآية استدلّ بالكواكب والقمر وغير ذٰلك، فحقيقة هٰذه الموارد الحدوث، والحادث محتاجٌ إلى محدثٍ ينتهي إليه وليس إلّا الله، وإلّا للزم الدور أو التسلسل في المؤثّرين إلى ما لا نهاية وهٰذا ممتنعٌ عقلًا، وقد علّق السيّد الطباطبائيّ على هٰذه الآية بقوله: «يدلّ على أنّه عليه السلام إنّما كان يأخذ ما يلقيه من الحجّة على أبيه وقومه ممّا كان يشاهده من ملكوت السماوات والأرض، وقد أفاض الله ـ سبحانه ـ اليقين الّذي ذكره غايةً لإراءته الملكوت على قلبه بهٰذه المشاهدة والرؤية. وهٰذا أوضح شاهدٍ على أن الّذي ذكره عليه السلام من الحجّة كانت حجّةً برهانيّةً ترتضع من ثدي اليقين، وقد أورد في ذٰلك قوله: لا أحبّ الآفلين» [الطباطبائيّ، الميزان، ج7 ص 184].

2. وحدانيّة الله تعالى ومدبّريّته

إثباته في الجدل القرآنيّ نراه من خلال قانون وبرهان التمانع، الّذي يدحض قول المشركين في التوحيد، حينما ردّ عليهم بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 22]، فذكر ـ سبحانه وتعالى ـ الدلالة على توحيده، وأنّه لا يجوز أن يكون معه إلهٌ سواه، فلو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله، لفسدتا وما استقامتا، وفسد من فيهما، ولم ينتظم أمرهم.

وهٰذا هو دليل التمانع الّذي بنى عليه المتكلّمون مسألة التوحيد، وتقرير ذٰلك: أنّه لو كان مع الله ـ سبحانه ـ إلهٌ آخر، لكانا قديمين، والقدم من أخصّ الصفات، فالاشتراك فيه يوجب التماثل، فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيّين. ومن حقّ كلّ قادرين أن يصحّ كون أحدهما مريدًا لضدّ ما يريده الآخر من إماتةٍ وإحياءٍ... فإذا فرضنا ذٰلك، فلا يخلو إمّا أن يحصل مرادهما، وذٰلك محالٌ، وإمّا أن لا يحصل مرادهما، فينتقض كونهما قادرين، وإمّا أن يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منعٍ معقولٍ قادرًا، فإذن لا يجوز أن يكون الإلٰه إلّا واحدًا. [ظ: الطبرسي، مجمع البيان، ج7 ص80]

وبذٰلك تمتنع ما تدّعيه الوثنية لامتناع الفساد، وتثبت الوحدانية لله الواحد الأحد.

3. معرفة النبيّ والتصديق برسالته

من الأساليب الّتي تتّبع في طرق الإقناع هي الإلزام بما كان يؤمن به الخصم، ومن الآيات الّتي نرى فيها هٰذا الأسلوب هو ما نزل في شأن اليهود، الّذين رفضوا الاعتراف برسالة الخاتم محمّدٍ ﷺ، وأنّه لم ينزل فيها شيءٌ من ذٰلك، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [سورة الأنعام: 91]، وفي سبب نزول هٰذه الآية روى الواحديّ بسنده

عن ابن عبّاسٍ: «قالت اليهود: يا محمّـد أنزل الله عليك كتابًا، قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابًا فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾» [الواحدي النيسابوري، أسباب نزول الآيات، ص147]، فمقتضى الآية الكريمة يدلّ على إلزامهم بما كانوا يؤمنون به سابقًا، وهو أنّ الله ـ تعالى ـ أنزل على بشرٍ وهو موسى عليه السلام الّذي تعترفون به، فهم في الحقيقة كذّبوا وادّعوا سلبًا مطلقًا ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ والله ـ تعالى ـ فنّد هٰذه الدعوى، بما يعترفون به هم أنفسهم، بإيجابٍ جزئيٍّ مناقضٍ لذٰلك السلب الكلّيّ؛ لأنّهم يعترفون بالتوراة وهي حاضرةٌ بين أيديهم كما أنّهم أصحاب كتابٍ، وبهٰذا تبطل دعواهم بهٰذا المنهج الإقناعيّ في إلزامهم، بحيث يسقط ما في أيديهم ويعترفوا برسالة النبيّ محمّدٍ صلى الله عليه وآله ويصدّقوا برسالته.

4. إثبات المعاد

الإقناع هنا يثبت من خلال برهان التمثيل، ونقصد به إلحاق أحد الشيئين بالآخر، وذٰلك بأن يُفرّع المستدلّ الأمر الّذي يدّعيه على أمرٍ معروفٍ عند من يخاطبه، أو على أمرٍ بدهيٍّ لا تنكره العقول. وقد سلك القرآن هٰذا الدليل بدقّةٍ وحكمةٍ متناهيّةٍ مقرِّبًا بين الحقائق القرآنيّة والبداهة العقليّة، وهٰذا ما نراه جليًّا في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يس: 78 و 79].

فاحتجّ بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، وهٰذا نوع مماثلةٍ بين شيئين؛ إذ كلّ عاقل يعلم ضروريًّا أنّ من قدر على هٰذه، قدر على تلك، وإنّه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه، فأتبع ذٰلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، فهو عليمٌ بتفاصيل الخلق الأوّل وجزئيّاته وموادّه وصورته، فكذٰلك الثاني، فإذا كان تامّ العلم كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميمٌ؟!

[ظ: ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين، ج1 ص140]

ممّا تقدّم اتّضح أنّ المنهج الجدليّ هو منهجٌ معظمه قائمٌ على البرهان العقليّ الدقيق، والأصل في هٰذا الجدال هو الإقناع بالّتي هي أحسن، وهي خير وسيلةٍ لبيان وإثبات الحقّ وإبطال الباطل.

4. المنهج القصصيّ التاريخيّ

لقد عني القرآن الكريم بالمنهج القصصيّ، لما تحويه القصّة من خصائص كثيرةٍ، ولعلّ أهمّها هو الأثر النفسيّ الّذي تتركه القصّة في وجدان وذهن الإنسان، لهٰذا نرى أنّ القصّة أخذت مساحةً واسعةً في المحتوى القرآنيّ، بحيث تصل إلى ربع أو ثلث القرآن، والهدف الأسمى لها هو تقرير مسائل العقيدة وتجذيرها وتعميقها في النفوس، وذٰلك من خلال الأسلوب العقليّ أو العاطفيّ الوجدانيّ الّذي يتناغم مع فطرة الإنسان وشعوره بوحدانيّة الله تبارك وتعالى.

تعريف القصّة

القصّة لغةً تعني تتبّع الأثر، وتقصّص الخبر: تتبّعه، واقتصصت الحديث رويته على وجهه [ابن منظور، لسان العرب، ج7 ص74]. والقصص الأخبار المتتبّعة، قال تعالى: ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص404]. فالمعنى اللغويّ للقصّة هو الإخبار عن الشيء أو تتبّع الأثر، أي أنّ الثاني يتبع الأوّل.

أمّا القصّة في القرآن فهي كلّ خبرٍ موجودٍ بين دفّتي المصحف، أخبر به الله تعالى رسوله محمّدًا ﷺ بحوادث الماضي، بقصد العبرة والهداية، سواءٌ أكان ذٰلك بين الرسل وأقوامهم، أو كان بين الأمم السابقة أفرادًا وجماعاتٍ. [العدوي، معالم القصة في القرآن الكريم، ص 36]

وللقصص القرآنيّة نهجٌ في موضوعها وفي أسلوب أدائها ومقاصدها وغاياتها، فهي في موضوعها نسيجٌ من الصدق الخالص وعصارةٌ من الحقيقة المصفّاة، لا تشوبها شائبةٌ من وهمٍ أو خيالٍ، إنّها لبنةٌ من لبنات الواقع بلا تزييفٍ ولا تمويهٍ

[ظ: الخطيــب، القصص القرآنيّ في منطوقه ومفهومــه، ص 9]. فالقصّة الّتي تعرض في القرآن ليس فيها شيءٌ من الخيال ولا الشــعر، بل هي قصّــةٌ واقعيّةٌ وصادقةٌ، فالقرآن لا يريد منّا أن نقرأ التاريخ والقصص فحسب، بل يقول أمعنوا النظر في بداية القصّة وبداية التاريخ، سيروا في الأرض شــاهدوا واشهدوا، فالقرآن لا يقصّ قصّة (من هو) بل يقصّ قصّة (ما هو) وفرقٌ كبيرٌ بينهما، والأوّل يشــمل الزمان والمكان، أي متى وقعت القصّة وكيف، أمّا الثاني (ما هو) فهو يسأل عن التاريخ، والتاريخ يدور فيه على الّذي قام في الأمر، بأيّ دافعٍ ولأيّ هدفٍ، وبأيّ شكلٍ تشكّل، وبهٰذا نميّز القصــص القرآنيّ عن غيره. [ظ: جوادي آملي، القصة في القرآن، ص23؛ مجلة التوحيد، العدد 30، لسنة 1366 هـ ش]

والّذي يتتبّع القصص القرآنيّة يجد أحداثها كلّها تقريبًا تدور في محيط الدعوة إلى الله، وإلى ترسيخ العقيدة وتصفيتها من العبودية لغير الله، وتوجيهها إلى عبادة الإلٰه الواحد الخالق ربّ العالمين؛ ولذٰلك كانت دعوات الأنبياء هي الشــخصيّة الغالبة في القصص القرآنيّ، بحيث ساغ أن تسمّى القصص باسم صاحب الدعوى، فيقال قصّة يوسف، وقصّة موسى وقصّة نوحٍ. [ظ: الخطيب، القصص القرآنيّ في منطوقه ومفهومه، ص 43]

تطبيقات المنهج القصصيّ في القرآن

ومن التطبيقات لهٰذا المنهج القرآنيّ في ترسيخ الاعتقاد:

1. وحدانية الله تعالى في قصة نوح

وحدانيّة الله ـ تعالى ـ هي التطبيق الأبرز في هٰذا المنهج، وهٰذا ما نجده في قصّة نوحٍ عليه السلام مع قومه. والله ـ سبحانه ـ بدأ بقصّته، وهو أوّل رسولٍ يذكر الله قصّته في القرآن، فقد أرسله ـ تعالى ـ ليحيي عبادة الله بعدما انتشرت عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [ســورة الأعراف: 59]، فعندما نقرأ النصّ القرآنيّ في قوله: (يا قوم) فأضافهم إلى نفســه، ليكون جريًا على مقتضى النصح، الّذي ســيخبرهم به

عن نفســـه، ودعاهم أوّل ما دعاهم إلى توحيد الله تعالى، فإن دعاهم إلى عبادته، وأخبرهـــم بانتفاء كلّ إلٰهٍ غيره، فيكون دعوةً إلى عبادة الله وحده من غير أن يشرك به في عبادته غيره وهو التوحيد، ثمّ أنذرهم بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وظاهره يوم القيامة، فيكون في ذٰلك دعوة إلى أصلين من أصول الدين وهما التوحيد والمعـــاد [ظ: الطباطبائي، الميزان، ج 8 ص 174]، ثم ينبّه قومه لإعمال العقل والتفكّر في آياته الكونيّة من خلال التفكير في الســـماوات والأرض والأنهار والشمس والقمر وما في ذٰلك مـــن النعم، وعن طريق التفكير في خلقهم أنفســـهم، قال ـ تعالى ـ حكايةً عن نوحٍ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۞ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۞ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۞ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۞ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 10ـ20]، وهٰذه دعوةٌ واضحةٌ لكي يعودوا إلى رشـــدهم ويتفكّروا في خلـــق الله، والمعنى خلقكم أصنافًا مختلفين، لا يشبه بعضكم بعضًا، ولمّا ذكر هٰذا الدليل من الأنفس على التوحيد، أتبعـــه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهـــودة في كلّ القرآن. [ظ: الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج30 ص 139]

2. وحدانيّة الله في قصّة إبراهيم

في قصّـــة نبي الله إبراهيـــم عليه السلام يتكرر المشـــهد ولٰكنّ الأســـلوب يختلف، فالمخاطب هو العقل الإنسانيّ، يخاطب قومه في حوار مجادلةٍ أو محاججةٍ، أو قل هو حوار توجيهٍ وإرشادٍ ونصحٍ، وخطابه يدور بين الفرد أو الجماعة، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۞ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۞ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [ســـورة الشـــعراء: 69ـ77]، في هٰذه اللوحة القصصيّة القرآنيّة الّتي نجد أنّ

إبراهيـــم النبيّ يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى، ويســـتفهم لتقرير الحجّة عليهم، بدليلٍ عقليٍّ واضحٍ وجليٍّ، فقال لهم: (هل يسمعونكم) أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم، وهل يقدرون على ذٰلك؟

وتقريـــر هٰذه الحجّة الّتي ذكرها إبراهيـــم عليه السلام: أنّ الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجئ إليه في المســـألة؛ ليعرف مراده إذا سمع دعاءه، ثمّ يستجيب له في بذل منفعةٍ أو دفع مضرّةٍ، فقال لهم: فإذا كان من تعبدونه لا يســـمع دعاءكم حتّى يعرف مقصودكم، ولو عـــرف ذٰلك لما صحّ أن يبذل النفع أو يدفع الضرر، فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هٰذا وصفه؟ [الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج 24، ص 142]

وبذٰلك ســـقط من يد قومه ما كانوا يتمسّكون به من حججٍ واهيةٍ، فقد بهتوا لصناعـــة الحجّة لعلمهم أنّ أصنامهم لا تنطـــق، وأولى بهم أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد الصمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ.

الخاتمة

من خلال ما تقدّم مــن بحثنا يمكن أن نقول: إنّ القــرآن الكريم قد أعطى للعقيدة دورًا كبيرًا في حياة الإنسـان، وعمّق في النفس البشريّة مناهجَ ليسلكها الإنســان فتنير دربه وتضيء طريقه، ليبصر النور ويســير على هدًى، وقد أسهم بحثنــا في بيان تلكم المناهج وتحديد تطبيقاتها، من خلال الآيات القرآنيّة والرؤى التفسيريّة، ونلخّص ذٰلك بما يلي:

1. **المنهــج الفطــريّ**: دلالته على أصــول الدين العامّــة والخاصّة بوحدانيّة الله تعالى، وقد ذكرنا تطبيقاته المهمّة، من خلال ظواهر تدلّ عليه كالرزق وعلم الغيب وغير ذٰلك. فكلّها تتناغم مع هٰذا المنهج وتدفع الإنسان للإيمان بربّه وخالقه.

2. **المنهــج العقــليّ**: يكاد يكون هــو البارز في ترســيخ العقيدة، فالإيمان والاعتقاد بالله والنبوّة والمعاد، شاخصها الرئيس هو العقل، فمعياريّة العقل حاضرةٌ في كلّ بحثنا، وقد ذكرنا دوره في الاعتقاد بصانع الحياة والنبوّة والمعاد، من خلال تطبيقات القرآن وتحليلها وفق منطوق العقل.

3. **المنهج الجدليّ الإقناعيّ**: قوامه العقل أيضًا، ويستهدف الحقائق لذاتها، ويقدّم الحجج والبراهــين الدامغة بحيث تكون تامّةً وواضحةً، وتلزم الخصم بموضوعيّةٍ يعترف بها الخصم نفسه، وقد قدّمنا تفصيلًا لمجالاته في مســألة التوحيد ومدبريّة الخالق، ومعرفة النبيّ والتصديق به، وغير ذٰلك.

4. **المنهــج القصصيّ**: للقصّــة ومنهجهــا الدور الفاعل في تجذير العقيــدة، من خلال أثرهــا النفسيّ والوجــدانيّ في النفس البشريّة، والقرآن أولاها أهمّيّةً كبيرةً في هٰذا المجال، فجاءت قصّة نوحٍ وإبراهيم وداوود لتؤكّد هٰذا الغرض.

قائمة المصادر

1.ابن أبي الحديد، محمد أبو الفضل، شرح نهج البلاغة،بيروت، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1378هـ.

2. ابن القيم الجوزية، إعلام الموقّعين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ.

3. ابن فارس، أحمد بن الحسين، معجم مقاييس اللغة، بيروت، مكتبة الإعلام الإسلامي، ط ، 1404هـ.

4. ابن كثير أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار المعرفة بيروت، 1412هـ.

5. ابن منظورٍ، جمال الدين محمّد بن مكرمٍ، لسان العرب، قم المقدسة، أدب الحوزة، 1379.

6. أبو سليمان، عبد الحميد أحمد، أزمة العقل المسلم، بيروت، الدار العالمية للكتاب الإسلامي،1425.

7. الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، بيروت، دار إحياء التراث العربي،1421هـ.

8. آملي، جوادي، العقيدة من خلال الفطرة في القرآن، بيروت، دار الصفوة، ، 1429هـ.

9. جوادي آملي، القصة في القرآن، مجلة التوحيد، العدد 30، لسنة 1366 هـ ش.

10. الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط2، 1404هـ.

11. الخشن، حسين، الدين والفطرة، http://www.al-khechin.com/article/

12. خطيب شربيني، محمد، السراج المنير، بيروت ،دار الكتب العلمية، ط1، 1425هـ.

13. الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، بيروت دار المعرفة ،1395 هـ.

14. الخواجة الطوسي، نصير الدين، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، قم، انتشارات شكوري، ط3، 1372، هـ.

15. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات غريب القرآن،قم، دفتر نشر كتاب ، ط2، 1404 هـ.

16. رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، بيروت، دار المعرفة، 1414 هـ.

17. الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، قم، دار الحديث، ط1، 1416 هـ.

18. السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن،قم، مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط 5، 1430هـ.

19. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، بيروت دار الفكر، 1416 هـ.

20. الشيرازي، مكارم، الأمثل، قم، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، ط1،

1426هـ.

21. الشـــيرازي، مكارم، نفحات القرآن،قم، منشورات الإمام علي بن أبي طالب، ط1، 1426.

22.الطباطبائي، محمد حسين، تفســير الميزان، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط5، 1403 هـ.

23.الطبرسي، الفضل بن الحســن، مجمع البيان، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط 1، 1415هـ.

24. الطوسي، محمد بن الحســن، التبيان في تفسير القرآن،بيروت، مكتب الإعلام الإسلامي، ط1، 1409 هـ.

25.عبده، محمد، شرح نهج البلاغة، قم، دار الذخائر، ط1، 1412 هـ.

26.العدوي، محمد خير محمود، معالم القصة في القرآن الكريم، الأردن، دار العدوي، 2002.

27.الغــزالي، محمد بن محمد، إحيــاء علوم الدين، القاهــرة، دار الفجر للتراث، 1999م.

28.الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفســير الكبير، بــيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ.

29.الفراهيــدي، الخليل بن أحمــد، بيروت، مؤسســة دار الهجرة، ط 2، 1410هـ.

30. القمي، عباس، مفاتيح الجنان، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط3، 1430هـ.

31. الكاشاني، محسن، الأصفى في تفسير القرآن، بيروت، مكتب الإعلام الإسلامي، ط1، 1418 هـ.

32. الكليني، محمد بن يعقوب، طهران، دار الكتب الإسلامية، ط5، 1363هـ.

33. المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1421هـ.

34. المطهري، مرتضى، الفطرة، بيروت، مؤسسة البعثة، ط1، 1411هـ.

35. الملكي، محمد باقر، توحيد الإمامية، بيروت، وزارة الثقافة والإرشاد، ط1، 1415هـ.

36. نهاوندي، محمد، نفحات الرحمن في تفسير القرآن، قم، مؤسسة البعثة، ط1، 1427هـ.

37. الواحدي النيسابوري، علي بن أحمد، أسباب نزول الآيات، القاهرة، مؤسسة الحلبي، 1388هـ.